بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وبعد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]، هكذا قال سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ. ولقد امتثل الحبيب عليه الصلاة والسلام أمر ربّه فقام وأطال في القيام، وبكى وأطال في البكاء، وخشع وأطال في الخشوع. ويقول عزَّ وجلَّ لرسوله ومصطفاه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

مثل قيامك في ليالي الدنيا يكون قيامك المحمود يوم القيامة.

رمضان شهر الصيام والقيام، أحلى الليالي، وأغلى الساعات يوم يقوم الصّوام في جنح الظلام:

قلتُ لليل هل بجوفك سِرٌّ
عامرٌ بالحديثِ والأسرارِ

قال لم أَلْقَ في حياتي حديثاً
كحديث الأحبابِ في الأسحارِ

ليل الصائمين قصير؛ لأنه لذيذ، وليل العابثين طويل؛ لأنه سقيم.

فقِصارهن مع الهمومِ طويلةٌ
وطوالُهُنّ مع السُّرورِ قصارُ

وصف الله الصالحين من عباده فقال: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧]، فليلهم من أحسن الليل، ووصفهم في السحر فقال: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقال: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]. فأسحارهم من أجمل الأسحار:

يا ليلةَ الجزع هلاّ عدْتِ ثانيةً
سَقَى زمانَك هَطّالٌ من الديمِ
أمسيت في نشوةِ التّوفيق يُقْلِقُني
طُلوعُ فجرٍ بدا من عاليَ العلمِ

كان المهاجرون والأنصار إذا أظلم عليهم اللّيل؛ سمع لهم نشيج بالبكاء، وإذا أسفر

الصباح؛ فإذا هم الأسود إقدامًا وشجاعةً:

في الليل رهبانٌ وعندَ لقائهم
لعدوِّهِمْ من أشْجَعِ الشُّجْعَانِ

كانت بيوت المهاجرين والأنصار في ظلام الليل مدارس تلاوة، وجامعات تربية، ومعاهد إيمان، فما لبيوت كثير من الناس اليوم أصبحت ثكنات للغناء والمجون، وملاجىء للسفه واللهو. اللهم عفوك يا كريم.

فلما فقدنا قيام الليل؛ قست قلوبنا، وجفت دموعنا، وضَعُف إيمانُنا.

صحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه**» [رواه السبعة: البخاري، ومسلم، وأبوداود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد].

مما يُعين على قيام الليل تذكر ذاك القيام المهول: يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم يُبعثرُ ما في القبور، ويُحصّل ما في الصّدور.

ومما يعين على قيام الليل تذكر ظلمة

القبر، ووحشة القبر، وهمّ القبر، فقيام الليل نور لظلمة القبور.

ومما يعين على قيام الليل تذكر الأجر والمثوبة والعفو عن الخطيئة والذنب.

تفنن السلف في قيام الليل، فمنهم من أمضى الليل راكعًا، ومنهم من قطعه ساجدًا، ومنهم من أذهبه قائمًا. منهم التالي الباكي، ومنهم الذاكر المتأمل، ومنهم الشاكر المعتبر.

لماذا أقفرت بيوتنا من قيام الليل؟!

لماذا خوت من التلاوة؟!

لماذا شكت منازلنا من قلة المتهجدين:

أيا دارَ سَلْمى كنتِ أولَ منزلٍ
نَزَلنا به والرّكْبُ ضبحت بلابله
نزلنا فلمْ نشهدْ به رِفْقةً مضتْ
فسالَ من الدّمع المكتّم عاجلُه

إذا أظلم الليل نامت قلوب الغافلين، وماتت أرواح اللاعبين، حينها تحيى القلوب المؤمنة، وتسهر العيون الخائفة.

نـامـت الأعْيـنُ إلاّ مقلـةٌ
تذرفُ الدّمعَ وترعَى مَضْجِعَكْ

كيف ينام من يتذكر رقدة القبور، والحشر يوم النشور، وقاصمة الظهور.

ما كنّا نظن أن جيلاً من المسلمين يسهر على البلوت، والشطرنج، والغناء، وقلة الحياء، فرحماك يا رب:

كُنْ كالصحابةِ في زهدٍ وفي ورعٍ
القومُ هم ما لهمْ في الناسِ أشباهُ
عبّاد ليلٍ إذا جنّ الظلامُ بهم
كم عابدٍ دمعه في الخدِّ أجراهُ

صحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لابن عمر: «**يا عبد الله لا تكُنْ كفلانٍ كان يقوم الليل ثم ترك قيام الليل**» [متفق عليه].

* * *

دار الوطن ٣٦٨

رمضان شهر القيام

شهر القيام

د. عائض القرني

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب
الرياض-ص.ب ٣٣١٠-هاتف ٤٧٩٢٠٤٢-فاكس ٤٧٢٣٩٤١